شاعر وجمهوره

بقلم روبرت غريفز

نقلها عبد اللطيف شراره

هنا انا جالس، وحيداً في غرفة هادئة لا تتأثر بشيء مما حولها، الى جانب طاولة عادية الا من اوراقي، وقلم رصاص، وقدح ماء!

المفروض فيّ ان اخاطب جمهرة قرائي كأعضاء في حرف أخرى غير حرفة الادب، كما خاطبهم آخرون غيري في هذه السلسلة من الاحاديث: موقف منحوس والنحس فيه أنه لا أكثر من شخص واحد فقط، من كل مائة شخص، قرأ قصائدي، وعن غير عمد ايضاً. وربما جاز لي أن استثني بعض القوافي التي كتبتها منذ نحو من اربعين سنة، وكان لها ان تتحجر في بعض الكتب المدرسية، كما انه لا امل لي في ان يزداد عدد قرائي زيادة مباشرة عن طريق هذه الاذاعة فتكون نحساً على نحس.

ستلاحظون ان الـ « بي. بي. سي » لم تعد هذه الجلسة الاذاعية، لتمدني بأصوات التشجيع التي ترتفع ضاحكة من اليمين، كما تفعل مع الممثلين الذين ينالون منها أجوراً عالية، واني لأجرؤ على القول إنه كان باستطاعتها ان تعدلي جلسة رقيقة ممتعة فيما لو ألححت في طلبها، فأنا صديق قديم للقائمين على هذه المحطة.

بيد أن الشاعر لا يحتاج الى جلسة، ولا الى مستمعين، ففي وسعه ان يقوم بعمله، على أفضل ما يكون، من غير قهقهة او صهيل، لا غنى عنهما الممثل. إن الممثل يحاول ان يزيد في عدد جمهوره ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولا يترك فرصة تفوته للاقاة الجمهور بشخصه، إلا ويغتنمها، فتراه يسوقه — إذا صح التعبير — الى الغداء، ويلاطفه، ويجامله، ويقدم له الصور الفوتوغرافية موقعة بخط مدور عريض: «الى جوري الخاص العزيز من معبوده تشارلي»، ويضيف بعد ذلك. كل مزحة غليظة، الى ما يشدهما ويجعلهما متحابين أكثر فأكثر...

أما الشاعر فأنه يتصرف خلاف ذلك تماماً مع جمهوره، هذا اذا كان حقيقة شاعراً، ولم يكن ممثلاً أو واعظاً، أو سمسار أرض للبيع!

صراحة ايها الجمهور الكريم! لست ممن يأنسون إليك في شيء ابداً، ولا أنا ممن يتوقعون على يدك خيراً! فرجائي اليك ان لا تقدم لي باقات الزهر فأنا لن أقدم اليك صورتي محبورة بامضائي.

هذا لا يفيد انني لا أتأثر أبداً بما تظهر من لطف وعطف، او انني أكره المال الذي ينفحني به الالفان او الآلاف الثلاثة من قرائك، لقاء مؤلفاتي الشعرية الجديدة، كل ما اعنيه، هو ان قصائدي لا تتوجه رأساً اليك، كما هو الشأن في نكات الممثل ومزاحاته المضحكة، وإن كنت لا أهتم، على الاقل، فيما اذا كنت تقرأ قصائدي أو تهملها.

نعم! أنا اكتب أيضاً بعض القصص التاريخية. وبها أؤمّن اسباب معيشتي. وباعثي الاصيل على كتابتها، هو ان اجلو مشكلة تاريخية جعلتني حائراً، غير اني لا انسى ابداً أن هذه القصص هي التي تمدني، كما تمد أسرتي الكبيرة، بالقوت واللباس وما اليها. وهكذا... بهذه الروح، أفكر بالقارىء العام، المتوسط الحال، المثقف، الذكي، محاولاً ان اثير انتباهه، في أن اكتب له بكل وضوح وبساطة، على قدر ما يسمح الموضوع.

الحصول على المال متعذر في هذه الايام، وإني ليساورني الشك في نفسي اذا انا لم أجعل قصصي تنبض بالحياة جهد ما أستطيع، تماماً كما هي حال البقال أو الجزار الذي يفخر أمام زبائنه بتقديم أفضل المنتوجات وأحدثها وأزكاها، بسعر معقول. وهنا، نجد الواجب والمصلحة الشخصية يسيران يداً بيد، وإلا اضطر صاحب الحاجة الى التزود من مكان آخر، ونصح رفاقه بأن يفعلوا ما فعل...

انني لا اشعر بهذه المودة تجاه الجمهرة من قراء شعري! ولا اعني بذلك ان لي في النثر معايير ادق واضبط من معايير الشعر، بل العكس هو الصحيح، فالقصائد أعسر بكثير على الكتابة من المؤلفات الشعرية، ولذا، فان مقاييسي في الشعر ارفع: اذا انا اعدت كتابة سطر منثور خمس مرات، فاني اعيد كتابة بيت من الشعر خمس عشرة مرة! والواقع هو اني لا استطيع ان اقول لنفسي: «المال قليل في ايدي القراء، علي أن انظم « دزينة من القصائد.» ولكني استطيع ان اقول بسهولة: «المال قليل في ايدي الناس، وقد حان الوقت لان اكتب لهم قصة اخرى جديدة» فالقصص مما يدخل في ملك الجمهور، وليس هذا من شأن القصائد.

أستطيع أن أوضح هذه النقطة الاخيرة، في التحدث عن الرسائل المهمة: إن اكثر الرسائل المهمة التي تكتبونها تنقسم بين صنفين مختلفين: الاول، رسالة الاشغال الخاصة « سيدي، أرجو أن تأخذوا علماً عن مخابرتكم في الخامس من الشهر الجاري ... » تلك الرسالة التي تكتبونها وعيونكم في سجلات المكتب. هذا الصنف من الرسائل يدخل في ملك الجمهور. أما الصنف الآخر، فهو الرسالة الشخصية التي تبدأ هكذا: « عزيزتي الغالية ليلى: عندما قبلتك قبلة الوداع، في الليلة الاخيرة ... » أو هكذا: « عزيزي النقيب د: أنت تمشي على شفير يوقعك في اللهب ... » وتكون في جميع الحالات مكتوبة لتنقل عاطفة أو هوى واضحاً دون أي فكرة طعن أو إخلاف بوعد يمكن أن يشكل في المستقبل حادثة ملموسة تؤخذ شهادة عليك، وتلك هي حال القصائد.

علينا أن نميز تلك القصائد التي نظمت، وقد لوحظ الجمهور في نظمها بعين يقظة، من تلك التي نظمت في جو عاطفي خاص.

ولا مشاحة أن هذه المقابلة بين القصائد والرسائل، غير دقيقة. فان من القصائد (أغنيات شكسبير مثلاً) ما هو في صنف رسائل الغرام، ومنها ما هو من صنف: « أنت تمشي على شفير اللهب » كبعض أغنيات شكسبير أيضاً. ولكن الشاعر يظهر في الاعم الاغلب من حالاته، وكأنه يخاطب نفسه، لا حبيبته ولا عدوه...

لمن اذن يكتب الشاعر قصائده، إذا كان لا يوجهها الى ليلاه الخاصة، ولا الى النقيب د.؟

— لا تحسبني خيالياً إذا قلت إنه يكتب لربة الفن! لقد أصبحت « ربة الفن » مزحة شعبية. تأمل الدكتور هويكيم، معلم المدرسة، كيف يسخر حين يجد بيتاً من الشعر على السبورة، كتبه أحد تلامذته: « ها! ها! يا ولدي! كنت تناجي ربة الشعر. اليك ذلك البيت! وهذا... وهذا...»

ولكن، على الرغم من الدكتور هويكيم، كانت ربة الفن يوماً من الايام الهة قوية. وكان الشعراء يعبدونها بتجلة وخشوع، كما كان الصاغة يخشعون لإلههم فولكان، والجنود لإلههم مارس.

أنا أسلم أن عبادة ربة الفن في عهد هوميروس اجتثت، واستعيض عنها بعبادة ذلك الذي انتصب فجأة في الساحة أعني، به « ابولو » الذي ادعى انه اله الشعراء. ومع ذلك، فان إلياذة هوميروس واوذيسته تبدآن بمناجاة ربة الشعر. وانا عندما أقول: ان الشاعر يكتب قصائده لربة الفن، فانما اعني ببساطة، أنه يعامل الشعر بورع يمكن وصفه أنه ديني وانه لا يسمح

١١٩

لاي نشاط آخر ، ان يتدخل معه،سواءتعلق بمقومات حياته ، أوبواجباته الاجتماعية .

تلك كانت قاعدتي الخاصة ،منذ كنت في الرابعة أو الخامسة عشرةمن سني، وقد اصبحت لي طبيعة ثانية .

ينبغي أن لا تنظم القصائد ، كما تؤلف القصص ، أي لتسلية الجمهور ، أو تعليمه ، وإلا خسرت ما فيها من شاعرية . والعلة في نظم القصائد ليست سراً : الشاعر يجد نفسه ، حين ينظم، مأخوذاً بضرب من الهيجان العاطفي، الماكر ، الملح، ثم لا يملك حيال إلحاحه ، إلا إن ينبعث معه نحو حالة من الذهول يغيب فيها غيبوبة يعمل ذهنه خلالها عمله بجرأة ودقة،في عديد الجهات والآفاق الخيالية دفعة واحدة ، فتأتي القصيدة إما حلاً لمشكلة ، وإما طرحاً واضحاً لها . والمشكلة المطروحة بوضوح ، في منتصف طريقها نحو الحل . وفي الشعراء من نكبوا أكـثر من غيرهم ، بالمشاكل العاطفية ، فهم لذلك ، ارهف وجداناً في تأليف القصائد التي تثور في قرارة سرائرهم ، أي أنهم ، بتعبير آخر ، اكثر عناية وانتباهاً في خدمة الهة الشعر .

كان الاقدمون يشبهون القصائد بالدرر والدرر ليست غير رد الفعل الطبيعي الذي تقوم به المحارة إزاء حصى صغيرة انزلقت بين صماميتها،وراحت تزعجها ازعاجاً مستمراً ،إذ تنتهي الحصى بالتفتت إلى أن تصبح ناعمة ، وتأتلف طبقة واحدة مع صدفة المحارة ، وينقطع أذاها عنها .

وشبهت القصائد أيضاً بالعسل . فالنحلة العـاملة تساق بنوع من القلق الداخلي العميق ، إلى جمع الاري واختزانه طوال الصيف ، وتظل تكد وتجهد إلى ان ترثّ أجنحتها وتبلى ، في تعبدها للملكة .

هاتان المخلوقتان : المحارة والنحلة ، تبذلان من الجهود في عملها ، ما جعل بعض الجغرافيين يقول في كتاب له : « إن محارات تينفلي تقدم أجمل دررها للسوق الهندية » وفي مقام آخر : « ان نحال هيميتوس تنتج أطيب العسل في العالم . »

هذا العالم الجغرافي يقربنا خطوة من هذه الفرضية المضحكة ، الهوّيلة المنطق ، وهي أن المحارة تهتم كل ذلك الاهتمام بعملها ، لتدخل السرور على قلوب عشاق الجمال من تجار بومباي !! وأن النحال إنما تكد ذلك الكد لتفرح ذوي الشراهة ممن يرتادون أغلى المطاعم في العالم ! فاذا طبقنا هذه الفرضية على الشعراء ، نراها من الهزل والهزال المنطقي بالمنزلة نفسها.

بيد اننا نعرف ان شكسبير لم يذع غير الاقل الاقل من اغنياته الخاصة، على الصفوة القليلة من اصدقائه ، ويبدو لنا أنه لم يكن لديه أية نية في نشر الباقي منها.ويظهر ان أحد الناشرين من باعة الكتب– واسمه ثورب–اشترى مخطوطة الاغنيات من رجل مغمور هو المستر و . ه . كانت موجهة اليه ، واختلس المجموعة، مجموعة الاغنيات كلها . . .

على انه يندر ، مع ذلك كله ، ان تكون قصيدة ما محض شخصية، او خالصة في طابعها الخاص لدرجة لا يتاح معها فهمها إلا لفئة قليلة من معاصري الشاعر ، فهي إذا كانت قد نظمت بعناية خاصة متوخاة – أي ان المشكلة التي اثارت ناظمها ، قد طرحت فيها بصدق وإخلاص واقتصاد – تصبح جديرة بأن تثير إعجاب تلك الفئة ، وتكون عندئذ حلاً لمشكلة ملحة تضغط عليهم شخصياً ، لان ناظمها كائن انساني . وهم كذلك !

وإذا كان الشاعر يعبر عن مشاكله الخاصة بلسان يحدث أنهم يشاركونه فيه ، فلا بد حينئذ من ان ينشأ تعاطف قريب بينه وبين جمهوره، حتى وإن كان لا يتوجه إليه مباشرة في ما ينظم من أشعار ، بل إن التعاطف هنا أقرب مما هو بين المحارة وجمهورها ، او النحلة وجمهورها .

وجمهور شاعر ما يتألف من اولئك الذين يصادف ان يكونوا قريبين منه قرابة كافية ، في التربية والبيئة والرؤى الخيالية ، وان يكونوا قادرين على التقاط ما تحت نبراته وما فوقها من معان شعرية . والشاعر لا ينكر على خلطائه ولداته، المتعة التي يجدونها في قراءة ما ينظم – اللهم إلا اذا كان يمقتهم ! – حين تكون ربة الفن قد ألهمته ، ونولته مرامه في التعبير عن نفسه

ينزع شعراء الشباب احد منزعين : إما الطموح إلى اطرف ، وإمـا بلوغ مستوى الزي الشعري السائد ، وكلاهما محكومان بالخيبة والافلاس – إفلاس في الشاعرية فقط ، لأن هاتين النزعتين مفيدتان في دنيا الاعمال وسائر المهن–لانهما يشجعان الشاعر على أن يكون من«ذوي الأغراض» عند الجمهور.فمحاولة بلوغ المستوى السائد تسوقه سوقاً إلى استعارة اسلوب أي شاعر آخر حاز رضا الجماهير في عصره. وقد عرفت ثلاثة أجيال لجون سميث : الاول نشأ حقيقياً . أما الثاني والثالث فهما اللذان ذهبا الى المدرسة نفسها ، والجامعة نفسها ، وتلقنا المهن التي تلقنها جون سميث الاول . وظلّ مع ذلك ، جون سميث الأول ينظم زوراً على طريقة الشاعر سونبيورن، وجون سميث الثاني ينظم زوراً أيضاً على طريقة الشاعر هوبكنز ، وجون سميث الثالث ينظم اليوم زوراً على طريقة إليوت . ولكن اذا لم يكن جون سميث قادراً أن ينظم على طريقة جون سميث نفسه ، فأي خروج على الزي كانت نتيجته ؟! ولمَ يزعج نفسه بالنظم كل هذا الازعاج؟! أترى من المؤكد أن تنيسون واحداً ، وهوبكنز واحداً ، وإليوت واحداً ، يكفي لأي عصر كان ؟!

أما الطموح إلى اطرف ، فان له نتائج أقبح ! ذلك بأن الشاعر المحدث يسعى أن يكون مبتكراً ويبدأ بالتجريب : ذلك هو الخطأ الأكبر .

صحيح أن المشكلة المتاصة ، غير العادية ، تحمل الشاعر كرهـاً على

قريباً يصدر عن
دار صادر ودار بيروت
للطباعة والنشر
الفريدة اليتيمة في تاج اللغة العربية
لسان العرب
للإمام العلامة
ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي
باشراف
جماعة من العلماء المتخصصين في دراسة اللغة

١٢٠

ولوج غيبوبة شعرية، وهناك يمكن ان يجد نفسه آخذاً في نظم أوزان تختلف عن الأوزان المعروفة المقبولة ، وربما وجدها تسك ألفاظاً جديدة ، على نحو ما فعل شكسبير وهاردي! ولكن التجديد بهذا المعنى، يظل غير التجريب فالبحث التجريبي أمر جيد كل الجودة للعالم، لانه ينقله إلى سلسلة من التجارب الرتيبة المعتادة ، في حقل الاخلاط والمواد المعدنية مثلاً ، ويتيح له ان ينشر النتائج التي يخلص اليها ، في صحيفة علمية . أما الشعر فلا يمكن ان ندعوه علماً لأن العلم يعمل عمله في جوّ ذهني هادىء ، ضمن حماية خاصة ، ضد الحرية الخيالية .

والآن ... ما هذا الهذر كله حول شعر لا يدفع احد ثمنه ؟ ولماذا يدفع الناس ثمنه ، حين يكون تجريبياً بالمعنى اللاشرعي على الاخص ؟

– إن شعراء اليوم يتظلمون كثيراً من الضيق الاقتصادي الذي يعانونه حتى أنهم يتوقعون ان تسعفهم الدولة وتفرج كربهم . أية وظيفة إجتماعية يؤدّون ؟ إنهم ليسوا علماء ، ولا مطربين ، ولا فلاسفة ، ولا واعظين . أتراهم « مشترعين غير معترف بهم » على نحو ما قرّر شللي ؟

إذا حوصر شاعر بربة الفن ، ووفق الى نيل رضاها وتلبية طلباتها حين يسجل ملاحقاتها في أشعاره ، فان ذلك وحده يشكل في ذاته مكافأة كافية ! وإني لأشك فيما اذا كان الشاعر يرضى حتى في أن يساوم الجمهور على طريقة ويماك غريغور مع رفيقه في المدرسة يوم قال له : «أعطني عضة من تفاحتك وأريك ابهامي المجروح ! »

لقد كنت دوماً أدهش حين ألاقي جمهوراً يأنس لقصائدي الشخصية او يستمتع بها . واكبر الظن ان اكثر قرائي يشترون مجموعات شعرية لانهم يطالعون قصصي ، وهذا ، على ما أحسب ، سبب ضئيل الحظ من المنطق !

اعتقد اني تكلمت كثيراً حول الجهد الذي يبذله الشاعر ، ولا مبرر له، في السعي وراء جمهور يقرأ اشعاره . وعلي ان اتكلم الآن حول الجمهور في سعيه السليم المبرور ، وراء شاعر :

ايها الجمهور ! ارسلت إلي ، منذ ايام ، وفداً مؤلفاً من فرد واحد ، في شخص رجل مقدر ، مثقف ، ذكي ، ذي أسرة واولاد ، كما انه على صلة وثيقة بتجارة المطبوعات . بدأ حديثه معي هكذا : « اصبحت يا مستر روبرت ، كبير السن ، غليظ الذهن، فأنا لا استطيع اليوم ان اتابع تلاوة اكثر من بيت واحد ، من هذا الشعر العصري. وإني لاخجل من نفسي، أشد الخجل ، في حضور ابني ميخائيل ورفاقه » .

طلبت اليه ان يشرح لي ما يريد ، فقال : « نعم ! عندما كنت فتياً كان لي ولع بالتصوير العصري ، وقد جرت لي مرة معركة مع والدي لانه لم يستطع قدر المصور تولوز لوتريك حق قدره ، ولا زميله الدوانيه روسو. وأنت اليوم لا تحصل على لوحة مهمة لتولوز لوتريك الا بمقدار ما تنال لوحة لبوتيشللي .أما إذا كانت لديك لوحة من صنع الدوانيه روسو فانك تضطر الى وضع حرس في الليل يقيك شر اللصوص ... وميخائيل ورفاقه يقفون اليوم الموقف نفسه إزاء زيد وعمرو من الشعراء . وقد بلغ عدد المباع من ديوان زيد الاخير ١٠,٠٠٠ نسخة ، كما أن فلاناً من الشعراء ينظر اليه اليوم أنه أعلى تفاحة في الشجرة. ولا يمكن ان يكون جميع النقاد مخطئين!»

سألته : « كيف لا يمكن أن يكون جميع النقاد مخطئين اذا كنت تعني أن أولئك الذين هم « غير شعراء » هم الذين يقررون ازياء باريس ؟ من الذي يقرر طول ذيل الفستان هذا العام ؟ لسن هن النساء أنفسهن وإنما هم تجار القبعات النسائية من رجال الروده لابيه (شارع السلام) : ولهؤلاء الرجال ، تجار القبعات، اشبـــاه في الشعر ، وهم الذين يسيطرون على سوق الازياء الشعرية . وهناك دوماً ذيل له طول لا بد من تقريره ... وكما قال من قبل ويليم بليك : « المحتالون في أمة تجارية ، هم الذائعو الصيت في كل حرفة » ! ثم ما يدريك ان زيداً وعمراً من الشعراء، سيصبحان بعد عشرين عاماً شائخين ، عتيقين في نظر الجمهور ، كما حدث لهمبرت وولف ، وجون فريمان ، اللذين كانا معبودي الجماهير قبل عشرين او ثلاثين سنة ؟ »

قال : « تولوز لوتريك والدوانيه روسو لم يشيخا » فطامنت من حماسته في أن أقنعته أنه لا بد من زمن يمضي ليشيخ أحدهمـــا في نظر الجمهور ، أو ليشيخ بوتيشللي نفسه .

هنا، أورد السؤال الذي تتشوقون اليه «كيف يمكن اذن تمييز الشعر الجيد من الرديء ؟ » أجبته : « كيف تميز السمك الرديء من الجيد ؟ مؤكداً شمه ! استعمل اذن انفك ! »

قال : « نعم ! ربما أمكن تمييز المتقن من غير المتقن بالممارسة . ولكن ما هو الأمر في تمييز الصحيح من الزائف ؟ »

قلت : « للسمك الصحيح رائحة صحيحة ، أما السمك الزائف فلا رائحة له البتة ! » ورأى أن في هذا الجواب ملاسة يزلق الذهن عنها فشرحت قولي : « اذا كنت تفضل استعارة التصوير لايضاح الامر ، فليكن ما تفضل: ليس محك اللوحة الفنية منظرها البراق ، يوم طلائها ، معروضة في اطار ، وإنما محكها الصحيح هو فيما إذا أمكن تعليقها على جدار غرفة الاستقبال عاماً أو عامين بعد شرائها دون ان تموت حياتها . ومحك قصيدة ما هو فيما إذا كان يمكنك ان تتأثر حين تعيد تلاوتها ، بعد أن يتفق النقاد على انها قطعة رائعة ، ويمضي على حكمهم هذا ، ثلاث سنوات .

إن ذيل الفستان تراوح طولاً وقصراً من فوق الركبة إلى أخمص القدمين، منذ أخذت في قراءة معاصري الاول : توماس هاردي وويليم ديفـــيز وروبرت فروست، حتى متأخريهم من لورا رايدنغ، إلى نورمان كامبرون، إلى جيمس ريفز .

هؤلاء جميعاً نظموا مما هو دون مستواهم ، وليس فيهم اليوم من هو طريف ، ولكن أرقى ما اعطوا لم يمت بعد ، وما زال معلقاً على جدار غرفة الاستقبال .

والخلاصة: المطالب الوحيدة التي يمكن ان يتقدم بها شاعر إلى جمهوره هي ان يعاملوه باحترام ، وان ينتظروا منه شيئاً . ثم ان لا يجعلوا منه وجهاً جماهيرياً ، بل إذا شاءوا صديقـــاً سرياً .

ثم هل استطيع ان اغتنم هذه المناسبة لمخاطبة الشبـــاب من الشعراء ، واطلب إليهم ان لا يرسلوا قصائدهم لي لاخذ رأيي ؟ إذا كانت « قصـــائد » بالمعنى الحقيقي ، فانهم يعرفون ذلك بأنفسهم ، ولا يحتاجون إلى ان اقوله لهم. وإذا لم تكن، فلم يزعجون انفسهم ويرسلونها؟!

(عن الانكليزية)

عبد اللطيف شرارة